مابعد الوضعية والنقاشات النظرية في العلاقات الدولية

أنور محمد فرج محمود[1] و تارا طه عثمان[2]

[1] جامعة التنمية البشرية، السليمانية، اقليم كردستان، العراق
[2] جامعة السليمانية، السليمانية، اقليم كردستان، العراق

المستخلص- يتناول هذا البحث إشكالية إخفاق النظريات الوضعية - العقلانية في العلاقات الدولية (الواقعية والليبرالية) في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة عوضاً عن الفهم الدقيق للتحولات العميقة التي شهدها حقل العلاقات الدولية، والتي مهدت الطريق أمام ضهور الإتجاهات مابعد الوضعية وتأثيرها في النقاش الرابع واستجابتها للنقاش الخامس، ورفضها إمكانية وجود علم للعلاقات الدولية يستخدم معايير البرهان المرتبطة بالعلوم الطبيعية من أجل الوصول إلى مستويات مماثلة في التفسير والتيقُن والتنبؤ. وشاركت مابعد الوضعية في النقاشين من خلال التأكيد على مجموعة من النقاط من أهمها: إعادة تقييم النظريات القائمة على أساس الإختيار العقلاني، وإعادة النظر في دور ووظائف النظرية من وصف وتفسير وتنبؤ، وعدم قابلية أطراف النقاش الرابع للتحديد والمقايسة الدقيقة، وتطبيق نظرية التعقد في العلاقات الدولية، واللاخطية كوصف للعلاقات الدولية المعاصرة، وعدم قدرة السببية على استيعاب العلاقات الدولية المعاصرة.

الكلمات الدالة: مابعد الوضعية، نظريات العلاقات الدولية، النقاش الرابع، النقاش الخامس، فلسفة العلم.

المقدمة

إن الفشل في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة من قبل النظريات العقلانية في العلاقات الدولية (الواقعية والليبرالية)، أدى إلى الدعوة إلى أن التنبؤ في حد ذاته هي مسألة ليست ذات إعتبار من جهة وغير ممكنة من جهة أخرى في العلوم الإنسانية، فالإفتراضات القائمة على الإنسان والسلوك السياسي، حتى وإن كانت في إطار السياسات العالمية هي غير قابلة للتنبؤ بها، لأن الطبيعة الخاصة بالمجتمعات الإنسانية هي غير قابلة للقياس أو المقارنة. وهذه المسائل دعت المفكرين إلى إيجاد مداخل ومقاربات وأسس جديدة (مابعد وضعية) في فلسفة العلم من جهة، وإعادة النظر في دور النظرية ووظائفها في (الوصف والتفسير والتنبؤ) من جهة أخرى.

لذلك تتركز **إشكالية** هذه الدراسة في طرح التساؤل حول أهم موقع ومساهمة مابعد الوضعية في مجال الدراسة النظرية للعلاقات الدولية ومدى قدرتها على الإستجابة للتحولات التي طرأت على القضايا العالمية بسبب تداعيات العولمة وبروز ظواهر معرفية واجتماعية واقتصادية لايمكن تفسيرها وفهمها في سياق النظريات الوضعية فقط.

وتتبنى الدراسة **فرضية** مفادها أن النظريات المحسوبة على الوضعية لا يمكنها فهم التحولات والتعقيدات التي طرأت على مجال العلاقات الدولية فضلاً عن التنبوء بما سيحصل في المستقبل، وبالتالي فإن ظهور مابعد الوضعية يعد استجابة لتلك التحديات، وأن حضورها وتعاملها مع النقاشين الرابع والخامس في الحقل أكثر جدوى من النظريات الوضعية.

وعليه فإن **الهدف** من الدراسة هو التعرف على إسهامات مابعد الوضعية في مجال الدراسة النظرية للعلاقات الدولية وبشكل خاص موقعها في النقاشين الرابع والخامس.

والمنهجية المتبعة في الدراسة تعتمد على المنطق الإستقرائي لدراسة إسهامات مابعد الوضعية في مجال العلاقات الدولية، ومن الناحية الإجرائية تتبع عرض وتحليل أدبيات بعض مفكرين المنتمين إلى هذا الإتجاه فيما يعرف بدراسات (Literature Review Studies).

وتنقسم **هيكلية** الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مطالب، المطلب الأول يتناول **مابعد الوضعية والنقاشات النظرية في العلاقات الدولية**، أما المطلب الثاني فيشير إلى **تأثير مابعد الوضعية في النقاش الرابع**، ويدرس المطلب الثالث **إستجابة مابعد الوضعية للنقاش الخامس**، بالإضافة إلى الخاتمة وقائمة المصادر.

المطلب الأول
مابعد الوضعية والنقاشات النظرية في العلاقات الدولية

مع بدايات القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت مدارس فكرية-سياسية حول العلاقات الدولية، وطرحت مساهمات نظرية للبحث والدراسة في هذا الحقل المعرفي، تبلورت فيما بعد على شكل المناظرات أو النقاشات الكبرى في حقل العلاقات الدولية.

يظهر مجال تخصص العلاقات الدولية في حالة من الإرتباط الوثيق بالمتغيرات الواقعية والعملية في السياسة العالمية، وتبدو نظريات العلاقات الدولية كإستجابة لمتطلبات العلاقات القائمة بين الدول، وذلك ضمن العلاقات السياسية والإقتصادية والإجتماعية

مجلة جامعة التنمية البشرية
المجلد 4، العدد 2(2018) ؛ عدد الصفحات (8)؛ معرف الكائن الرقمي: 10.21928/juhd.v4n2y2018.pp61-68
أستلم البحث في 21 ايار 2018؛ قُبل في 30 ايار 2018
ورقة بحث منتظمة: نُشرت في 30 حزيران 2018
البريد الإلكتروني للمؤلف : anwar.faraj@uhd.edu.iq
حقوق الطبع والنشر ©2018 أنور محمد فرج محمودو تارا طه عثمان. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 4.0

التي تمارس فيها، لذا فإن حقل نظريات العلاقات الدولية من جهة في حالة تأثير وتأثر بالأحداث الواقعية، ومن جهة أخرى هي في حالة نقاشٍ دائم يؤطر ويعَرف حالة الحقل ضمن فلسفة العلم في المسار العام للتطور الذي يتطلبه وجودها وإستمرارها. لذا من المجبذ أن يتم عرض أدبيات العلاقات الدولية في إطارها النظري والتأريخي من خلال أهم التطورات (النقاشية) في الحقل.

عليه سنعرض النقاشات النظرية في العلاقات الدولية في فرع، وبعد ذلك نتناول المآزق التي واجهتها النظريات العقلانية المنتمية إلى الفلسفة الوضعية في حقل العلاقات الدولية وظهور مابعد الوضعية كإستجابة للتعامل مع تلك التحديات في حقل العلاقات الدولية.

الفرع الأول
النقاشات النظرية في العلاقات الدولية

يصنف (نيكولاس أونوف، Nicholas Onuf) تاريخ التخصص العلمي للعلاقات الدولية بالأجيال التي حملت الحقل عبر النقاشات. حيث يصنفها إلى أجيال متتالية ومناقشة ومطَورة لبعضها البعض، فوفقاً لمتابعة النسب "Genealogy" في نظريات العلاقات الدولية يمكن تصنيف الجيل الأول 1919، بالمستوطنين الأوائل " Early settlers"، والجيل الثاني 1946، بالآباء المؤسسين " Founder"fathers، والجيل الثالث 1969، ببانيي المسكن "House Builders"، أما الجيل الرابع 1989 بالحقول الدراسية المتباعدة "Far afield"، في حين أن الجيل الخامس هو من تقع على عاتقه مسألة بناء علم تعددي للعلاقات الدولية" Pluralist science of International Relations"، وذلك في سبيل بقاء وتطور علم العلاقات الدولية. (Onuf, 2016, P. 23-38)

إن ما يدعو له (أونوف)، هو ضرورة أن نتفهم إرتباط العلاقات الدولية بمنظريها وتصنيف النظريات وفقاً لتطور رؤية منظريها وجهودهم، من جانب، ومن جانب آخر فإن عمل هؤلاء أتى بصورةٍ متسلسلة ومكملة لعمل من يسبق ويلحق في دراسة العلاقات الدولية، فلولا عمل الآباء المؤسسين (والذي يقصد بها محاولات السلوكية العلمية في لتأسيس علم للعلاقات الدولية على اسس علمية صرفة) فان من المتعذر الوصول إلى مرحلة بناء المسكن (والتي يشير فيها إلى الحوار ما بين البارادايمات المختلفة الذي صاغ العوامل الثابتة للعلاقات الدولية، من الفواعل، الهيكل، النظام)، ووصولاً إلى الجيل الخامس الذي يصفه (أونوف) بالجامع والمتعدد وذلك بحكم المؤثرات الهائلة والمعقدة (كالعولمة، والتفاعلات المعقدة) التي تميز المرحلة التي يعمل فيها الجيل الخامس.

يمثل (**النقاش الأول**) في نقاش المدرستين المثالية والواقعية حول وصف وتحليل الواقع الدولي بين الحربين العالميتين وتقديم الرؤية المستقبلية لتلك العلاقات، وكانت المناظرة تركز على الطبيعة البشرية (خيرة أم شريرة).

وجاء (**النقاش الثاني**) نتيجة بروز المدرسة السلوكية في مجال العلاقات الدولية، وتمخض عنها في الحقل ما باتت تعرف بالمناظرة بين الاتجاهات التقليدية والاتجاه العلمي. ففي خمسينيات القرن العشرين، تمت إزاحة (النقاش، Debate) الأول بين الليبرالية المثالية والواقعية جانباً ببروز السلوكية وحملتها من أجل الإمبريقية والأسلوب العلمي مما أدى إلى مواجهة مع التقليديين استمرت خلال الستينات من القرن المنصرم فيما عرف بالنقاش الثاني، حيث عكست حالة الحقل مايمكن وصفه بالثورات الفكرية المتعاقبة.

إن المثالية والسلوكية تركتا المجال لسيطرة المنطلقات والتصورات القائمة على الدولة أو المتمركزة حول الدولة.

أما (**النقاش الثالث**) فظهر بعد تبلور مابعد السلوكية والتأكيد على نسبية العلوم الاجتماعية بجانب النسبية في القيم الأخلاقية عند دراسة الواقع السياسي المعقد، وابتداءً من السبعينات وما بعدها، فإن ما بعد السلوكية تطورت إلى نقاش مثلث الأبعاد بين الأطر أو الأنساق الفكرية حول منطلقات العالم المتمركز على الدولة. إلا أن الواقعية إضطرت إلى مواجهة كل من التعددية الليبرالية والراديكالية الماركسية في آن واحد، في ما عرف بالنقاش الثالث أو "النقاش مابين النماذج المعرفية لدراسة العلاقات الدولية Enter Paradigm Debates"، حيث بدت الإنقسامات واضحة في الوعي بما بين هذه النظريات والإتجاهات من اختلافات. (Banks, 2016, P. 34)

إن ميزة النظريات الثلاثة التي تم تطويرها في النقاش الثالث هي إتساقها داخلياً "أو إنغلاقها"، فإن ذلك لم يبقِ مجالاً للمناقشة بينها، فقد كانت مختلفة عن بعضها البعض في بناءآتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية، مثل: (الفواعل، طبيعة الديناميكيات الدولية، المتغيرات التابعة، الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية)، وعليه تم طرح خاصية اللامقايسة نظراً لوجود تفاوت واضح يمنع إجراء المقارنات النظرية بينها، فالواقعيون يرون أن وظيفة النظرية يجب أن تنحصر في تفسير ماتقوم به الدول، بينما تذهب الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإحاطتها بتفسير كل الأحداث العالمية المهمة، أما الراديكالية فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى الفرق الشاسع بين الأغنياء والفقراء في العالم. (Neufeld, 1995, P. 47)

لذا إتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش الثالث بتمسك كل من النظريات أو النماذج المعرفية الثلاث بقناعاتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتفسيرات لايمكن دحضها إمبريقياً، كما إن الإتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيباً بين المقاربات الثلاث، لكن مع نهاية الثمانينات وظهور بوادر تحدي بارادايمي أخطر مستمد من النزعة مابعد الوضعية، حيث وجدت الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة في حالة من الاتصال المنظوراتي الحاد الذي أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للإنتقادات التي وجهت للبناء التأسيسي الوضعي عموماً في الحقول المعرفية الأخرى حيث كانت العلاقات الدولية بمنأى عنها. لذا فإن أهم تحول بارادايمي خلال الثمانينات هو بداية التحول عن الإعتقاد السائد بأن علمية التخصص الأكاديمي يمكن إكتسابها عبر هيمنة "بارادايم" واحد، إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه العلمية تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسليم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجها كل بناءٍ تأسيسي على حده. (Weaver, 1996, P. 154-55) وهذا التحول عرف بالنقاش الرابع.

ومن الضروري التنويه إلى أنه هناك من يرى بأن النقاش الثالث، كان من جهة بين (الواقعية، الليبرالية، والماركسية)، ومن جهة أخرى بين الوضعيين- ومابعد الوضعيين وهو ما إعتمده وناقشه (أولي ويفر، Ole Weaver) في مقالته (صعود وأفول النقاش مابين البارادايمات)، إلا أن هذا التصنيف قد يحدث تشوشاً بخصوص تسلسل النقاشات النظرية وجوهر ما تناقشه، لذا فقد تم إعتماد التصنيف الذي لا يُدخل النقاش الوضعي مابعد الوضعي ضمن النقاش مابين البارادايمات في هذا البحث.

أما (**النقاش الرابع**) فبدأ منذ انتهاء الحرب الباردة وطرحت أسئلة جديدة حول دور الهويات والثقافات متمثلة في القيم والأفكار والإنتماءات المختلفة بين الأمم في العلاقات الدولية، وشاركت الإتجاهات مابعد الوضعية في هذا النقاش، فيتميز النقاش الرابع بمفارقته وإختلافه عن التقاليد المؤسسة للنقاشات السابقة، فالإختلاف الذي يتضمنه

النقاش الرابع هو في كونه يغاير الأسس التي بنيت عليها النظريات السابقة (الواقعية، الليبرالية، الراديكالية)، فالنقاش الرابع يعتبرها نقاشات بسمات ومميزاتِ وضعية لم تعد كافية للإلمام بالمستجدات السياسية والعلمية، حيث أن النقاش الرابع يدور بين (النظرية العقلانية Rationalism) و(النظرية التأملية Reflectivism).

لقد قام (روبرت كيوهين Robert Keohane)، بإطلاق هذا النقاش في خطابه الرئاسي أمام جمعية الدراسات الدولية (ISA) عام (1988)، حيث أشار إلى التوتر الذي كان يبرز في ذلك الوقت بين المقاربات العقلانية (كالواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة) من جهة والمقاربات التأملية من جهة أخرى، كالبنائية والمعيارية ومابعد البنيوية. والإختلاف الرئيس بين المقاربات العقلانية والتأملية هو في كون الإعتبارات العقلانية وضعية، بينما المنهجيات التأملية تعارض الوضعية، لذا يمكن القول أن الإختلافات الجوهرية بين التصورات التأملية والعقلانية هي إختلافات (إبيستمولوجية) و(ميثودولوجية)، أما الإختلافات (الأنطولوجية) فهي إختلافات ثانوية. وذلك يعني أنّ النقاش الرابع يتعلق بكيفية معرفتنا لما ندعي بأننا نعرفه. (سميث، 2016، ص 53)

الفرع الثاني
مأزق الوضعية وظهور مابعد الوضعية

تأثّر تشكُّل تخصص العلاقات الدولية بدور العلم والتكنولوجيا في تطوير عالمنا المعاصر. وقد أدت إمكانات السيطرة والقدرة التنبؤية التي توفرها العلوم الطبيعية إلى تقديم نموذج سعى العلماء الإجتماعيون إلى تقليده. وقد أسس هذا النموذج، "الوضعية Positivism" وفقاً للنظرية الإمبيريقية في المعرفة التي حاجّت بأن التجربة الحسية تشكل المصدر المشروع الوحيد للمعرفة. وتشير "التجربة أو الخبرة Experience" إلى الوصول المباشر من خلال الحواس البشرية إلى واقعٍ خارجي يكوّن أشياء مادية. (كامبل، 2016، ص 519-20)

وهنا تحديداً تمت الدعوة إلى أن التماثل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإجتماعية أمر خطير. إذ أن تصنيفات الأنواع التي وضعها العلماء الطبيعيون يتم تخطيطها إستناداً إلى حقيقة خارجية لا تتأثر بعملية التصنيف. غير أن تصنيفات الأنواع في العلوم الاجتماعية يمكن أن تشكل جزءاً من الواقع الجاري تحليله. (وايت، ليتل، 2004، ص 9)

ولكن من الملاحظ أنه منذ بداية العقد الثامن، من القرن العشرين، ظهرت مجموعة من الكتابات التي أخذت تنتقد الأسس الإبستيمولوجية والمنهجية المبنية على الفلسفة الوضعية (كأساس لفلسفة العلم) التي سيطرت مدة طويلة على دراسة العلاقات الدولية. ومع تطور علم العلاقات الدولية، فقد بدأت تيارات جديدة تنتقل من العلوم الإجتماعية وخاصةً علم الإجتماع إلى العلاقات الدولية، وهي تشير إلى أنّ مشروع الحداثة الذي بنيت عليه الوضعية لم يستطع تقديم ما سعى إليه الإنسان وهو تحريره وإطلاق فكره لصناعة الخير العام للإنسانية، وقد سمي هذا الجدل مع بداية التسعينات من القرن الماضي بالنقاش بن الوضعية ومابعد الوضعية. (Smith, 1996, P. 16)

ترفض مابعد الوضعية في العلاقات الدولية إمكانية وجود علم للعلاقات الدولية يستخدم معايير البرهان المرتبطة بالعلوم الطبيعية من أجل الوصول إلى مستويات مماثلة في التفسير والتيقُّن والتنبؤ، وفي تسعينات القرن العشرين، حدث جدل ضخم حول ادعاءات الوضعية، وكان السؤال الرئيسي يتعلق بما إذا كانت هناك اختلافات عميقة بين العلوم "الطبيعية" والعلوم "الإنسانية". ولم يكن يقل عن ذلك وجود المناقشات المتعلقة بطبيعة النظرية والغرض منها. وتمركز الجدل حول ما إذا كانت النظريات _حتى تلك التي تستهدف الموضوعية_ هي في جوهرها "سياسية" نظراً لأنها تولد رؤى كونية تعلي من شأن البعض.

إن سمات الفترة الجديدة ترتكز على غلبة قضايا جديدة، فليست الهياكل الفاعلة هي التي تغيرت فحسب –إذ لم تعد السياسة العالمية تعرف أساساً بصراع عقائدي-عسكري بين مركزي قوة مهيمنتين تتحكم بهما، على التوالي "قوتان عظيمتان"، ولكن طرأ تحول على أجندة السياسة العالمية. فلم تعد السياسة العالمية تسيطر عليها قضايا ناجمة عن علاقات الشرق والغرب – نذير الحرب النووية، الصراع العقائدي بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية-اللينينية. فالأسرة الدولية أصبحت منشغلة الآن بقضايا أخرى مثل البحث عن "نظام عالمي جديد" وأوجه التفاوت بين الدول المتقدمة والدول النامية، ونهاية التاريخ، وصدام الحضارات، والإختلاف الثقافي، وقضايا البيئة. (وايت، ليتل، 2004، ص 4) كذلك تفكك وانقسام الدول، والهجرة الجماعية، الأقليات القومية، التطهير العرقي. (Jackson & Sorensen, 2016, P. 60)

وبالنتيجة فإن وجود قضايا مستجَدة وأجندات حديثة في السياق الدولي، أدى إلى إيجاد مقاربات ومداخل، وبالتالي نقاشات جديدة تحاول الإستجابة للمتطلبات المعاصرة في فلسفة العلم والسياق النظري بالتوازي مع التحولات التي تؤثر وتتأثر به. لذلك سنبحث في مجموعة من الحوارات والمقاربات التي عاصرت وبحثت تلك التحولات في فلسفة العلم.

وفي تطورٍ موازٍ، فقد جائت أحداث (2001/9/11) كبداية محاولات التفكير في أن التمحور حول العوامل والفواعل والنظريات الدولية السابقة قد أصبحت غير ذات جدوى مع التطورات السريعة والهائلة التي تطرحها العولمة، والعلاقات العابرة للحدود الوطنية، والتداخل الثقافي بسلبياتها وإيجابياتها، وإعادة النظر في مسألة التمحور حول الدولة من جانب، ومن جانب آخر فإن تلك الأحداث قد شكلت رمزاً للحظةٍ تأريخية جعلت باحثي ومنظري السياسة الدولية يواجهون مسائل ذات طبيعة (معقدة) في السياسة الدولية. فللمرةِ الأولى أصبح منظرو العلاقات الدولية مطالَبين بأجوبة سريعة ومتناسبة مع الطبيعة الراهنة للعلاقات الدولية وليس التمحور حول الأسباب، والتناقش في ثنائيات الفهم/التفسير، وهو ما أدى بالمنظرين إلى القول أنهم (وجدوها: إنها...معقدة).

المطلب الثاني
تأثير مابعد الوضعية في النقاش الرابع

يمكن وصف النقاش الرابع في العلاقات الدولية بأنه نقاش بين **التفسير والفهم**، فحيث يسعى المنظرون التفسيريون إلى محاكاة العلوم الطبيعية في إتباع منهجيات علمية ومحاولة التعرف إلى "المسببات causes" العامة، فإن مؤيدي الفهم يركزون على تحليل المعنى الداخلي، والأسباب، والمعتقدات التي تحملها الجهات الفاعلة وتتصرف وفقاً لها. (Hollis & Smith, 1990, P. 7)

وهكذا فإن الفهم يحوي المعاني الإجتماعية، واللغة، والمعتقدات تشكل الجانب الأنطولوجي الأكثر أهمية في الوجود الإجتماعي ولا يختلف المنظرون التفسيريون عموماً عن هذا الزعم، إلا أنهم ليسوا مقتنعين بإمكان دمج مثل هذه الأشياء داخل إطار علمي للتحليل. وبالنسبة إليهم تتطلب المعرفة العلمية تبريراً تجريبياً، بينما المعاني والمعتقدات، والأفكار، ليست قابلة للتحقق من صحتها من خلال أساليب كهذه. ومن دون تبريرات (تجريبية - إمبريقية) من هذا النوع، لايمكن للمزاعم المعرفية أن تكون أكثر من مجردِ تكهنات. (كوركي، 2016، ص 84)

تحتاج الوقائع في العالم الاجتماعي، ومن ثم المعرفة الاجتماعية إلى "التأويل Interpretation"، وهو ما يميز الع(ا)لم الاجتماعي عن الع(ا)لم الطبيعي، كما أنه يفقد "الواقعة Fact" صفة الموضوعية، حيث أن إخضاعها للتأويل يفتح الباب أمام التأويلات، ومن ثم التعدد في النظريات التي تدعي القيام بوصف الواقعة وتفسيرها. فكلما حدث شئ في العالم الاجتماعي، كلما كانت هناك عدة كيفيات لتأويله ووصفه، ما يجعل التأويليين المؤمنين بقابلية الوقائع الاجتماعية للتأويل وليس للتفسير، يجادلون بضرورة نزع صفة الموضوعية بالمطلق عن الوقائع الإجتماعية. Chernoff, 2007, P. (131)

وسنبيّن جوهر النقاش النظري بين الوضعية ومابعد الوضعية في العلاقات الدولية في أربعة فروع، كالآتي:

الفرع الأول
إعادة تقييم النظريات القائمة على أساس الإختيار العقلاني

حين يتم التركيز على مجموعة من النظريات وتتم محاولة إنتقاده، فإن المنطق يؤيد أن يتم إنتقاد الأسس التي تجمع تلك النظريات والإختيار العقلاني هو مايجمع النظريات المشاركة في النقاش الثالث. وكثيراً ما كانت تبرز الإعتبارات العقلانية Kahler, (1998) في سياق دراسات العلاقات الدولية خاصة حين يؤثر مستوى تحليل صنع القرارات في الأوصاف والشروح. حيث أن السؤال الذي مفاده "هل إنَّ صانعي القرار عقلانيون؟" سؤال أساسي للمقاربات القائمة على أساس نظرية الاختيار العقلاني. (إيفانز ونويهام، 2004، ص 422)

تعود نظرية الإختيار العقلاني في أصولها إلى فترة السبعينات، حيث كان يسود التوقع بأن النظرية الدولية كانت لتستمر في التطور خلال العقود المتبقية من القرن الماضي، على أساس التعارض بين الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة، مع إمكانية وجود نقد ماركسي لكليهما. وفي هذا السياق يحدد (ستيف سميث) مجموعة من المنطلقات المشتركة التي توحد "العقلانيين" في الافتراضات منها: (Smith, 2000, P. 381)

أ. الإعتقاد بإمكانية النزعة الطبيعية في العالم الإجتماعي بمعنى أن العالم الإجتماعي يقبل نفس أنماط التحليل المستعملة على العالم الطبيعي.

ب. الفصل بين الوقائع والقيم، بمعنى أن الوقائع محايدة نظرياً وأن الإلتزامات المعيارية لاينبغي أن تؤثر على ما يمكن إعتباره كوقائع.

ج. الإلتزام بالكشف عن الأنماط والانتظامات في العالم الإجتماعي، الموجود بغض النظر عن المناهج والمقاربات المستخدمة للكشف عليها.

د. وأخيراً الإلتزام بالتجريبية باعتبارها الحكم على ما يمكن وما لايمكن إعتباره معرفة بشأن العالم الإجتماعي.

والحقيقة أن العلم مابعد الوضعي بشكله العام يطرح مسألة عدم إمكان فصل الذات عن الموضوع أو "الموضوعية"، وإنتقاد مسائل الملاحظة والتجريب في العلوم الإنسانية. فلا يمكن تحقق الحيادية العلمية كما في العلوم الطبيعية، والإنسان جزء من الشئ الذي تتم ملاحظته، كما لايمكن تجريب المجتمعات الإنسانية ووضعها في إختبارات علمية، حتى وإن كان ذلك عبر القياس والبيانات الإحصائية.

الفرع الثاني
إعادة النظر في دور ووظيفة النظرية

في ظل الوضعية كانت النظرية يقصد بها أن تتمتع بالحيادية، وأن تحصر إهتمامها في كشف الحقائق والأنماط الموجودة سلفاً ضمن عالم مستقل خارجي. وضمن هذه الأجندة تطرح (ميليا كوركي) مسألة التوصل إلى الحقائق عن طريق النظريات، حيث ترى أنه ولمدة زمنية طويلة من تاريخ هذا الحقل المعرفي كانت هناك فلسفة علمية محددة هي المسيطرة. فقد أدى نفوذ الوضعية بوصفها فلسفة في العلوم، ليس إلى تشكيل الطريقة التي نقوم فيها بالتنظير في الموضوع وما الذي يمكن اعتباره سؤالاً مشروعاً فحسب بل أدى إلى تشكيل ما يمكن أن نعده شكلاً مشروعاً للأدلة والمعارف. وتنوه (كوركي) إلى ضرورة الإلتفات إلى نقطتين هامتين: الأولى هي أنه بالرغم من قبول كل المؤيدين والنقاد على حدٍ سواء للنموذج الوضعي للعلوم، إلا أن تصور الوضعية التي سيطرت على التخصص هو تصور بدائي وغير ناضج. ثانياً: وضمن فلسفة العلوم، عُدت الوضعية منذ زمن بعيد أنها تصور غير صالح للتطبيق العلمي. (كوركي، 2016، ص 73)

إن مايشكل الأساس "للإطار التفسيري، Explanatory Framework" هو "الرؤية الوضعية للعلم، Positivist Vision of Science" ولهذا التصور في العلوم جذوره في "الإبستيمولوجيا الإمبريقية، Empirical Epistemology". وكثيراً ما يتم الخلط بين مصطلحي الوضعية والتجريبية في التخصص. فالوضعية هي نظرية في العلوم، وبشكلٍ عام يتبنى معظم الوضعيين فلسفةً إبستيمولوجية إمبريقية. ومع ذلك لا يتبنى جميع التجريبيين الوضعية، لذا فمن الضروري المحافضة على التميز بين هذين المصطلحين، علماً أنه يمكن قبول صحة المعلومات التجريبية دون تبني تصور وضعي للعلوم. وباعتبار المقاربة الإمبريقية علماً إبستيمولوجياً، فهي مبنية على الإعتقاد بأن المعرفة الحقيقية الوحيدة التي يمكن أن تكون لدينا عن العالم مبنية على تلك "الحقائق" التي يمكن أن يتم إختبارها من خلال الحواس البشرية، والمراد بهذه الإبستيمولوجيا الإمبريقية بالنسبة الى العلوم هو أن المعارف العلمية لا تكون مضبوطة إلا عندما تكون مبنيةً على عملية التحقق من صحتها تجريبياً، لذلك يفضل الوضعيون المشاهدات والبيانات التجريبية، والقياس، أي أن ما لا يمكن أن يكون موضعاً للإختبار هو شئ لا يمكن التحقق منه علمياً. (Hollis and Smith, 1990)

وهنا يصف مابعد الوضعيين، الوضعيين بانهم قدموا (نظريات شارحة، Explanatory Theory) و(نظريات لحل المشاكل، Problem Solving Theory) و(نظريات للإبقاء على الوضع الراهن، Statuesque Theory). (المصري، 2014، ص 338) أي يمكن القول أن المقاربات العقلانية (الواقعية والليبرالية) هي مقاربات تفسيرية تربط بين الأنطولوجيا المادية والإبستيمولوجيا الوضعية، أما المقاربات التأملية التي يعرفها (مارك نيوفيلد، Mark Neufeld) بأنها السعي نحو "التأمل في عملية التنظير" التي يقوم بها الحقل. Neufeld, 1995, P. (54) أما مابعد الوضعية (التكوينية والنقدية) فهي تجمع بين الأنطولوجيا الإجتماعية وإبستيمولوجيا مناهضة للوضعية. (حمشي، 2017، ص 25)

وفي الوقت الذي تنظر النظريات التفسيرة إلى العالم بإعتباره شيئاً يقع خارج نظرياتنا عنه، في المقابل تعتبر النظريات التكوينية أن نظرياتنا تساعدنا على إعادة بناء ذلك العالم. إذا كان العالم عبارة عن مجموعة منظمة من السلوكيات، فإن النظريات التي نكونها تجعلنا نتصرف وفقاً لطريقةٍ معينة دون غيرها، فمثلاً لو كانت دولةُ ما تنظر إلى علاقاتها بدولة اخرى على أنها عدائية بطبعها لكان سلوكها اتجاهها يختلف عن سلوكها لو كانت تنظر اليها على أنها مسالمة بطبعها. إنَّ النظريات التفسيرية ترى أنَّ العالم الإجتماعي شبيه بالعالم الطبيعي، وأنَّ النظريات التي نستعملها لتحليله هي مجرد نظريات **تصف** الوقائع بشكل موضوعي ومحايد، ولكن تنظر النظريات التكوينية إلى اللغة التي

نستعملها وإلى المفاهيم التي نشكلها كعوامل تساعدنا على **إعادة بناء** تلك الوقائع. (سميث، 2004، ص 366)

والحقيقة أنَّ النظريات التكوينية لاتسعى إلى بناء، أو تعقب أنماط سببية من أجل التفسير لكنها تسعى إلى الاجابه على السؤال: كيف يتم تشَكل شئ ما؟ وليس لماذا حدث هذا الشئ؟(Chernoff, 2007, P. 133) أي أن هناك رؤية محددة حول **ماهية العلم** تؤطر هذا الحوار، ويقوم المنظر التفسيري بتقليل التعقيد الأنطولوجي للعالم الإجتماعي بحيث يقتصر على تلك الجوانب منه التي يمكن مشاهدتها وقياسها. وهكذا فإن الأنطولوجيا التي تتبناها هذه المقاربة يتم تشكيلها من خلال اعتبارات إبستيمولوجية وميثودولوجية. وهذا يقود إلى شرخ حاد بين هاتين المقاربتين من حيث المنهجية. فالمنظرون التفسيريون يفضلون المنهجيات الكمية، أو إنهم يحاولون تحديد قيم كمية للبيانات النوعية. أما مؤيدي الفهم فيتبنون منهجيات تأويلية (نوعية، واستطرادية، وعلمية) مجتنبين النهج التعميمي الخاص بالمفسرين، ولهذا الحوار أيضاً نتائج أبستمولوجية تتعلق بتأكيد النظرية التفسيرية على أن المشاهدة قد تكون الطريقة الوحيدة لتوليد معارف صالحة، بينما يركز جانب الفهم المتعلق بالحوار على تأويل سياقات الحوادث التي لايمكن مشاهدتها، ولايمكن قياسها تالياً. (كوركي، 2016، ص 84)

الفرع الثالث
إفتقار المقاربات العقلانية للقدرة على التنبؤ

كان من شأن نهاية الحرب الباردة أن تكشف عن افتقار المقاربات العقلانية المهيمنة ليس فقط للقدرة على التنبؤ، بل وحتى للقدرة على التفسير، كما كشفت عن افتقارها للبعد التأريخي في التنظير. (Jarvis, 2002, P. 2) ومع إنخفاض مصداقية النظرية الواقعية وزوال قوتها التفسيرية إلى مدى بعيد فإنه أصبح من الضروري التركيز على مجموعة من المقاربات والنظريات التي تتلائم مع الواقع الجديد لما بعد الحرب الباردة ودراسة العلوم الإنسانية في الاطار الثقافي والإجتماعي.

أدى تموقع النظرية "البنائية Constructivism" إلى جانب العقلانية والتأملية. إلى تزايد الإهتمام ببناء هذا النقاش، وذلك لسببين: **السبب الأول:** يتعلق بمسألة التموقع الثلاثي للمواقف النظرية (البنائية، العقلانية والتأملية) لأول مرة في تاريخ النقاشات، بدل التموقع الثنائي المألوف فيها بين (المثالية والواقعية) في النقاش الأول، وبين (التقليدية والسلوكية) في النقاش الثاني، وبين (الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة) في النقاش الثالث. **السبب الثاني:** يتعلق بوعود البنائية بالمساهمة في تطوير حقل تعددي يفتح آفاق الإتصال المعرفي بين المواقف النظرية خلال النقاشات السابقة، وذلك بتطويرها لما أصبح يعرف بنظرية "الأرضية الوسطى Middle-ground Theory". (حمشي، 2017، ص 46)

تقدم البنائية نقداً للطبيعة الوضعية لمنهجية التيار الرئيسي في العلاقات الدولية، التي تعكس اتجاهاً تغلب عليه الأحادية المنهجية والفكرة القائلة بأن العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية هي من نوع واحد. والنتائج (وفقاً للوضعية) تعد شرعية وصحيحة عندما تأتي عبر إجراءات ووسائل محددة. ووفقاً للبنائية فإن هذه الطريقة تنزع عن العلم مهمته الأولى بحسبانه **"نموذجا للمعرفة Paradigm of Knowledge"** وذلك لأنها تقوض أساس المنهجية الرامي إلى معرفة الأشياء كما هي. ويصبح الخيار بين شرعية الاجراءات (المنهج) والغاية النهائية (المعرفة). (أحمد، 2005، ص 167)

يدعى **"ألكساندر وينت، A. Wendt"** بأنه في إمكان النظرية البنائية أن تكون بمثابة جسر يربط الفجوة بين المناهج الوضعية ومابعد الوضعية في حقل العلاقات الدولية. فهي من ناحية تشترك مع كل من الواقعية والليبرالية في السمات الأساسية للسياسات العالمية، وهذا هو الجانب الوضعي الذي يتبناه. ويهتم من ناحية أخرى بهوية الفواعل والطريقة التي يتشكل بها سلوكهم وأفعالهم، وهذا الجانب من الموضوعات الأساسية في مدخل مابعد الوضعية. وإذا ما نجحت البنائية الاجتماعية في أن تكون حلقة الوصل هذه فإنها بذلك ستكتسب مكانة النظرية المسيطرة في الحقل. (فرج، 2007، ص 431)

الفرع الرابع
عدم القابلية للتحديد والمقايسة الدقيقة لأطراف النقاش الرابع

تطرح مسألة عدم القابلية للمقايسة نفسها بشدة في النقاش الرابع حيث أن الفصل هو بين العقلانيين والتأمليين من جهة، وبين التأمليين أنفسهم من جهة أخرى. حيث أنَّ ما يوحد التأمليين هو نقد ومعارضة العقلانية أكثر من البحث عن بديل لها. وهو ما يبدو واضحاً خاصة في تسمية، مابعد الوضعية، حيث يمكن الإستنتاج بأن المشروع النظري لمابعد الوضعية، بمختلف أبعاده، يفتقر بشكل واضح إلى البديل للوضعية، لأنه يفتقر إلى تسميةٍ بديلة خاصة بها ومميزة لها.(Brown, 1994, P. 214) فالـ(مابعديات) هي مرتبطة بالاسم والمضمون أيضاً، فبعض سمات المرحلة السابقة هي حاضرة في المرحلة اللاحقة، كما أن مجموعة من بوادر الروئ والنظريات التي تطرحها المرحلة اللاحقة نبتت منذ المرحلة السابقة، وهذه الظاهرة قد تتجلى في المجالات الأخرى كما في (ما بعد الحرب الباردة، مابعد البنيوية).

من الجدير التنويه إلى أن النظريات مابعد الوضعية تعاني مشكلة التعريف والتحديد فهي قد تم تحديدها إعتماداً على أن معارضتها للوضعية-العقلانية هي ما يميزها من جهة (وهو مايمثل إشكالية تعريفها)، وعدم إمكان تحديد المقاربات والنظريات التي تنتمي لها. من جهة أخرى، فإن تصنيف الإسهامات التي تسمى تأملية (مابعد وضعية)، يعتبر مثاراً للجدل، ففي الوقت الذي تقتصر فيه قائمة (كريس براون) مثلاً على مابعد الحداثيين، ما بعد البنيويين، النقديين، النسويين، تتسع قائمة (ستيف سميث)، لتضم كذلك، مابعد الكولونياليين، المعياريين، ومنظري علم الإجتماع التأريخي، بينما يقترح (فريد تشيرنوف، Fred Chernoff) قائمة أخرى تقتصر على النقديين، ما بعد البنيويين، والبنائيين. ولكن يمكن ملاحظة أن التأمليين بشكل عام يعتنقون عدداً من التيارات الفكرية التي تجد أصولها في الفلسفة، التاريخ، النظرية الإجتماعية، النظريات الأدبية، واللغويات. في تصنيف (تشيرنوف)، يبدو البنائيون ومابعد البنيويون ومابعد الحداثيون أكثر تأثراً بنظريات وفلسفة اللغة. بينما يبدو نقديو مدرسة فرانكفورت أكثر ميلاً لإستلهام النظريات الإجتماعية، بما في ذلك الماركسية. (حمشي، 2017، ص 46) ومن شأن ذلك أن يعتبر أبرز سمات النقاش الرابع.

ويمكن القول، أن النقاش الرابع، بالنتيجة، لم يتحرر من الثنائيات التي ميزت النقاشات الثلاث السابقة، فهي تتمحور حول (الوضعية/مابعد الوضعية)، و(العقلانية/التأملية)، و(التفسيرية/التكوينية)، (الفهم/التفسير)، (الموضوعية/التحيز)، (التأسيسية/المناهضة للتأسيسية)، مما يجعلها مرشحة لتصنف في نفس خانة النقاشات الثلاث السابقة، إلا أن هناك ما يميزها عن النقاشات الأخرى هو رفضها (الأرضية) التي تستند عليها **جميع** النظريات العقلانية ورفض فلسفة العلم المستندة عليها التي هي الإبستيمولوجيا الوضعية. فهي (أي مابعد الوضعية) لم تنتقد مسألة في جوهر النظريات السابقة بل إنتقدت منطق المنطلقات العقلانية، فلا علم خارج الوجود الإنساني ولايمكن الإلمام بمنطقٍ قائم على فلسفة علمٍ مستند على مجتمع الطبيعة وليس طبيعة المجتمع.

المطلب الثالث

إستجابة مابعد الوضعية للنقاش الخامس

إنَّ محاولة إقحام نظرية التعقد داخل الحقل فقد بدأت في سياق توصيات (التقرير النهائي للجنة الدولية لإصلاح وبناء العلوم الإجتماعية)، برئاسة (إيمانويل والرشتاين، I. Wallerstein) سنة (1996)، والتي دعت إلى إصلاح مؤسسة البحوث الإجتماعية عبر توجيهها نحو الإعتماد أكثر على ديناميكيات اللاتوازن، وما تستدعيه من التركيز على وجود أكثر من مستقبل (محتمل) للحاضر الراهن، فضلاً عن مفاهيم من قبيل: (التعقد-التشعب، حرية الإختيار، واللايقين) باعتباره جوهراً متاصلاً في الطبيعة، والملفت للنظر في أعمال هذه اللجنه أن تقريرها النهائي لم يركز على ضرورة إعادة تحديد الحدود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإجتماعية عن طريق دفع العلوم الإجتماعية إلى تبني المزيد من الميكانيكية والحتمية. بل ركز التقرير على إعادة تعريف **اللايقين**، **اللاخطية**، **اللاحتمية**، بما يتناسب مع كونها أصبحت تشكل أسساً لبارادايمٍ جديد. (Wallerstein, 1996, P. 1-7)

ومن الممكن تحديد أركان النقاش النظري الخامس في ثلاثة فروع، كالآتي:

الفرع الأول

تطبيق نظرية التعقد في العلاقات الدولية

من الممكن إعتبار دراسة (إيميليان كافالسكي، Emilian Kavalski) "النقاش الخامس وبروز نظرية تعقد العلاقات الدولية، ملاحظات حول تطبيق نظرية التعقد في دراسة الحياة الدولية"، بمثابة بداية قيام النقاش الخامس في العلاقات الدولية، حيث دشنت أطروحته حول إمكان تطبيق نظرية التعقد الفيزيائية في العلاقات الدولية مرحلة متمايزة في تزويد الحقل بمفاهيم وأدوات إستكشافية قادرة على تحدي التقاليد البحثية السائدة، وقادرة على تحفيز التفكير التحليلي لدى الباحثين إستناداً على "نظرية التعقد Complexity Theory"، وعمل بعض المنظرين في سبيل إستلهام نظرية التعقد في فهم الحياة الدولية كنظامٍ إجتماعي منضوٍ ضمن نظام طبيعي، أشد تعقداً من النظام الإجتماعي. (Kavalski, 2007, P. 436)

وخلال السنوات الأخيرة، أصبح مصطلح التعقد جزأً لا يتجزأ من الخطاب المعرفي في حقل العلاقات الدولية وهو ماتعكسه العديد من المفاهيم المؤصلة نظرياً: كمفهوم الإعتماد المتبادل لدى (جوزيف ناي Joseph Nye)، التعلم المعقد لدى (ألكسندر ونت Alexander Wendt) الأمن المعقد لدى (كين بوث Ken Booth) وآخرين، التنشئة الإجتماعية المعقدة لدى (ترين فلوكهارت Trine Flockhart). ومفاهيم أخرى عديدة تحمل وصف المعقد(ة). (حمشي، 2017، ص 210)

مع ذلك وعلى الرغم من ظهور هذه الإبتكارات النظرية فهي تبقى محدودة حيال المفارقة التي يوسع العقد من حِدتها، إذ كلما قلت قابلية المستقبل للتوقع زادت الحاجة إلى المزيد من الإستبصارات للتقليل من حدة الغموض الذي يكتنفه، وكلما قلت الظروف التي تسمح بالتخطيط زادت الحاجة إلى وضع مزيد من الخطط للتعامل مع تحديات المستقبل. وحيال ذلك يؤكد منظرو التعقد في العلاقات الدولية، أن باحثي التيار المهيمن في العلاقات الدولية يفتقدون إلى الوعي بالحدود التي يفرضها التعقد المتزايد في الحياة الدولية على الأجندة التقليدية للحقل. (Kavalski, 2007, P. 441)

تتمثل القيمة المضافة لنظرية التعقد في التشجيع على البدء في التفكير حول تفاعلات وتشابكات الحياة الدولية بوصفها نظاماً معقداً، أو بالأحرى، نظاماً معقداً من عدة أنظمة معقدة، فعندما نقول أنَّ هذه النظرية تتصور السياسة العالمية كنظام معقد، فهذا لايعني أنها تفرض الغياب المطلق للإنتظامات، لكنها تفترض أن الأنماط الخطية (النظام)، اللاخطية (التعقد) والعشوائية (اللانظام)، للتفاعلات العالمية يمكن أن تتعايش وتتزامن بعضها مع بعض.(Kavalski, 2007, P. 443)

إن النقاش الخامس أقرب إلى محاولات ودعوات لقراءة إستيعابية للتطورات التي تحدث نظرياً وعملياً وعولمياً، مما حرى بالمنظرين إلى التمعن في الظروف العالمية التي إستجدت، من جهة، ومن جهةٍ أخرى كانت معظم الكتابات في تلك الفترة بإتجاه تحصيل تنسيقٍ ممكن بين العلم وفلسفة العلم أو بين العلماء والفلاسفة وإستعارة مبدأ التعقد هو أحد الأمثلة على ذلك التنسيق.

من الملاحظ أن منظرين أمثال (روزيناو Rosenau) كانوا من بين الذين أتوا العلاقات الدولية بقراءآت فاحصة للأوضاع الدولية، فقد بحث (روزيناو) على خطى النقاش الخامس مسآئل العولمة والتفاعلات المعقدة الدولية، والنظام العالمي المعقد. وقد دعى إلى ضرورة تجاوز التصور القائم على نموذج النظام الدولي، حيث أن العالم أصبح أشبه بـ(زمان ومكان للدمج Amalgamation) تضم العديد من الفواعل، البنى والعمليات التي تتعرض للأندماج والتشتت على نحوٍ مستمرٍ ومتزامن. وهذا مايتناسب مع مفاهيم كـ"الحوكمة العالمية Global Governance"، التي فيها يتم تجاوز النموذج الهرمي للحكم، القائم على مركزية الدولة من جهة، والقائم على الشكل السلطوي الذي قامت عليه الدولة من جهة أخرى. فالعلاقات بين الدول أصبحت عبارة عن شبكة متزايدة التعقد من العلاقات السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الإجتماعية، و"الهجينة Hybrid" في نفس الوقت، وفي أحيانٍ كثيرة، والتي تربط مختلف الفواعل (مادون الوطنية، الوطنية، عبر الوطنية، مابين الوطنية، وما فوق الوطنية)، ضمن أشكالٍ مختلفة من (المنظمات، المنظومات، المؤسسات، الشبكات، الشركات)، وهذا ما يفسر الوصف الشائع حديثاً للحوكمة العالمية على أنها حوكمة متعددة و(معقدة) الفواعل، متعدد و(معقدة) المستويات، متعددة و(معقدة) التأثيرات والمجالات والسياقات. (Rosenau, 1997, P. 10-11)

يمكن القول بأن هذا التعقيد لا يمكن التعامل معه فقط من خلال النظريات الوضعية، مما يفتح المجال أمام النظريات مابعد الوضعية للتعامل مع تلك الطروحات المتعددة والمعقدة ووالإستجابة لكيفية توظيفها من أجل فهم أفضل لحقل العلاقات الدولية.

الفرع الثاني

اللاخطية كوصف للعلاقات الدولية المعاصرة

من الممكن إعتبار(اللا خطية Nonlinearity) في التفاعلات والعلاقات الدولية كخاصيةٍ معاصرة للسياسة الدولية، وكسمةٍ تُظهِر التعقد في العلاقات الدولية أيضاً. وهذه اللاخطية تنجم عن التأثر والإعتماد المتبادل بين **مختلف** عناصر النظام، وعن تفاعل النظام المستمر مع البيئة الخارجية بوصفه نظاماً مفتوحاً. ومن شأن هذا كله أن يفاقِم من حدة عدم قابلية الأنظمة المعقدة للتنبؤ بها وبمصيرها، من جانب، وبروز اللايقين بصورةٍ واضحة فيها من جانب آخر. (حمشي، 2017، ص 220)

وهذه الحالة (عدم التنبؤ واللايقين)، لا تأتي فقط من الغموض الذي يكتنف التفاعل بين الدول في بيئة تنجرف فيها الحدود بين الداخلي والخارجي، والمحلي والعالمي، والسياسي وغير السياسي، لكنها تأتي كذلك من حالة التراكب والتزامن بين عدةِ اتجاهاتٍ "ثنائية التفرع Dichotomous" ستبدو في غاية التعارض والتناقض إذا تم التفكير فيها بمنطق اليقين الذي ساد حقبة الحرب الباردة. فالنظام الدولي، على سبيل المثال يصبح أقل هيمنة لكنه لايزال قوياً، الدول تتغير لكنها لاتختفي، الحكومات تصبح

ضعيفة (مثلاً في دولٍ فاشلة)، لكنها قادرة على التأثير خارج حدودها، الفضاءات الجغرافية تفسح المزيد من المجال أمام فضاءآت، عرقية، فكرية، تكنولوجية، ومالية، في وقتٍ تُكون الجغرافيا العامل الأهم للجميع. (Rosenau, 1997, P. 32-33)

الفرع الثالث

عدم قدرة السببية على استيعاب العلاقات الدولية المعاصرة

إنَّ **إختزال** العلاقات الدولية في مسائل **سببية** (البحث عن أسباب الحرب) أصبح يشكل إشكاليةً علميةً وعملية، لان إختزال وتبسيط المنطلقات العلمية كما في (البحث عن أسباب الحرب) لم يعد يتناسب مع المتطلبات التي تنطوي عليها مسألة التطور النظري المواكب للتطور في الحياة الدولية. وإن مسألة التمحور حول (الانسان، الدولة، والنظام) والبحث في إطار (**المستوى التحليلي**) لايقل إختزاليةً عن السببية، فلم يعد فاعلي السياسة العالمية واضحين ومحددين كأناس (أفراد)، أو كدول (فاعلة)، أو كنظامٍ (**فوضى**). وأنَّ الفوضى المزعومة من قبل الواقعية البنيوية والتي قبِلت بها معضم النظريات في العلاقات الدولية، لم تعد تحتوي اجابات عن منطق (الكايوس، Chaos) الموجود في السياسة والعلاقات والنظام الدولي.

إن التركيز على العوامل البنيوية-النظمية، كالفوضى، لايؤدي فقط إلى تقديم تفسيرات بسيطة لسلوك الدول، كما تذهب إليه المقاربات التي سبقت النقاش الخامس، المشكلة أنه يؤدي وعلى نحو خطير إلى اختزال الديناميكيات المعقدة التي تستمر في جعل الدول تتفاعل بالكيفية التي تتفاعل بها في الواقع. (حمشي، 2017، ص 220)

يقول (كولن وايت، Colin White): "إن مفهوم مستويات التحليل يؤدي إلى إنشاء هيراركية خطية مُضلِلة لا تصف الواقع الإجتماعي كما هو عليه فعلاً، عدا عن كونه يؤدي إلى فرض حدود إفتراضية بين الدول والنظام الدولي، فالتمايزات الثنائية لاتنتهي في الحقل، كالتمييز بين (المحلي والعالمي)، (الداخلي والخارجي)، والحقيقة أن العامل المشترك بين هذه التمايزات هو أنها مفترضة وغير حقيقية، بمعنى أنها غير مستمدة من الواقع الإجتماعي المعقد للسياسة العالمية، وهذه المفاهيم مضللة تحليلياً، وإنَّها تُبقي الباحث في قفص المفاهيم السائدة". (Patomaki and Wight, 2000)

من الممكن القول أن أبرز سمات النقاش الخامس تتوضح في مسألة "تغَيُّر" مفاهيم ومنطلقات وآليات ونظريات العلاقات الدولية، فالخلاف لم يعد يدور حول مستويات أو منطلقات، فالنظريات التي تحلل الواقع الدولي وتتنبأ بمستقبله وتعطي فرضيات تحوله، هي ببساطة لم تعُد كافية لفهم شيفرات نظامٍ معقد، فجميع المفاهيم أصبحت مستجَدة وجديدة في السياسة والعلاقات والنظام الدولي، فالدولة أصبحت جزءاً غير مغلق من نظام عالمي، والمستويات التي تقام عليها التحليلات السببية (الفرد، الدولة، والنظام) هي مدعاة تبسيطٍ لم يعد موجوداً بالشكل النقي الذي كان عليه، وهي تؤدي إلى إنشاء هيراركية خطية أقرب إلى شكلٍ مفهومٍ بإنتظام، وإن كان "فوضى"، فـ(النظام) الدولي أصبح أقرب إلى (الكايوس، Chaos) منه إلى (الفوضى، Anarchy)، وكل ذلك أدى إلى بروز الرأي القائل بأنَّ النظام الدولي لايمكن فهمه إستناداً إلى المنطلقات والمستويات والنظريات التي سادت الحقل قبلاً، وأنَّ المستجدات في الواقع والفكر تطرح ضرورة الإستمداد من العلوم الطبيعة التي تأثرت بدورها من (مابعد الحداثة)، ويبدو بارادايم التعقد هو الأكثر تأهلاً للإجابة عن مجموعة من تلك المستجدات. وهو ماشكل معظم محاولات الإجابة عن المستجدات ضمن النقاش الخامس.

الخاتمة:

1. يرتبط الدراسة النظرية للعلاقات الدولية بالمتغيرات الواقعية في السياسة العالمية، وتأتي النظريات عادة كإستجابة لمتطلبات العلاقات الواقعية، لذلك فإن حقل نظريات العلاقات الدولية من جهة في حالة تأثير وتأثُر بالأحداث الواقعية، ومن جهة أخرى هي في حالة نقاشٍ دائم يؤطر ويعَرف حالة الحقل ضمن فلسفة العلم.
2. مرت الدراسة النظرية للعلاقات الدولية بأجيال متتالية ومناقشة ومطَورة لبعضها البعض، كل جيل يمثل نقاشاً نظرياً في الحقل، فنحن أمام خمسة أجيال وخمس نقاشات كبرى، فبدأ الجيل الأول، بالمستوطنين الأوائل، والجيل الثاني، بالآباء المؤسسين، والجيل الثالث، ببانيي المسكن، أما الجيل الرابع، بالحقول الدراسية المتباعدة، في حين أن الجيل الخامس، هو من تقع على عاتقه مسألة بناء علم تعددي للعلاقات الدولية، وذلك في سبيل تطور علم العلاقات الدولية.
3. بدأ النقاش الرابع منذ انتهاء الحرب الباردة ويتميز هذا النقاش بكونه يغاير الأسس التي بنيت عليها النظريات السابقة (الواقعية، الليبرالية، الراديكالية)، فيعتبرها نقاشات داخل الفلسفة الوضعية نفسها وتعتمد كلها على تقاليد الإختيار العقلاني، الذي أخفق في الإلمام بالمستجدات السياسية والعلمية، فيدور النقاش الرابع بين (النظرية العقلانية) و(النظرية التأملية).
4. مع تطور علم العلاقات الدولية، بدأت اتجاهات جديدة مستفيدة من العلوم الإجتماعية، وتدعي بأنّ مشروع المعرفي للحداثة والمنجية المأخوذة من الوضعية لم يقدما الخير العام للإنسانية، وقد سمي هذا الجدل بالنقاش بن الوضعية ومابعد الوضعية. وعليه رفضت مابعد الوضعية إمكانية وجود علم للعلاقات الدولية يستخدم معايير البرهان المرتبطة بالعلوم الطبيعية.
5. تنتقد مابعد الوضعية الإعتماد على الملاحظة والتجريب في العلوم الإنسانية وتطرح مسألة عدم تحقق الحيادية العلمية أو الوصول إلى الموضوعية، لأن الإنسان جزء من الشئ الذي تتم ملاحظته، كما لايمكن تجريب المجتمعات الإنسانية ووضعها في إختبارات علمية، حتى وإن كان ذلك عبر القياس والبيانات الإحصائية. وجل ما يمكن الوصول إليه هو (نظريات شارحة، ونظريات لحل المشاكل، ونظريات للإبقاء على الوضع الراهن).
6. إن النقاش الخامس عبارة عن محاولة ودعوة لاستيعاب التطورات النظرية والعملية المستجدة في الظروف العالمية، والعمل على تحصيل تنسيقٍ ممكن بين العلم وفلسفة العلم أو بين العلماء والفلاسفة، ويعد إستعارة مبدأ التعقد مثالاً على ذلك التنسيق. وتعاملت مابعد الوضعية مع تلك الطروحات المتعددة والمعقدة وحاولت الإستجابة لكيفية توظيفها في حقل العلاقات الدولية.
7. إنَّ أبرز سمات النقاش الخامس تتوضح في مسألة "تغَيُّر" مفاهيم ومنطلقات وآليات ونظريات العلاقات الدولية، فالخلاف لم يعد يدور فقط حول مستويات أو منطلقات، فالنظريات التي تحلل الواقع الدولي وتتنبأ بمستقبله وتعطي فرضيات تحوله، هي ببساطة لم تعُد كافية لفهم شيفرات نظامٍ معقد.
8. يركز النقاش الخامس عبى أن المستويات التي تقام عليها التحليلات السببية (الفرد، الدولة، والنظام) هي تبسيطية ولا يؤدي وظائف مرجوة في الفهم والتنبؤ، فـ(النظام) الدولي أصبح أقرب إلى (الكايوس، Chaos) منه إلى (الفوضى، Anarchy)، وكل ذلك أدى إلى بروز الرأي القائل بأنَّ النظام الدولي لايمكن فهمه إستناداً إلى المنطلقات والمستويات والنظريات السابقة،

ويبدو أن نموذج التعقد هو الأكثر تأهلاً للإجابة عن مجموعة من تلك المستجدات.

قائمة المصادر:

أولاً: العربية:

أحمد، حسن الحاج علي (2005) العالم المصنوع: دراسة في البناء الإجتماعي للسياسة العالمية، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

إيفانز، غراهام. ونوينهام، جيفري. (2004) قاموس بنغوين للعلاقات الدولية، دبي، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث.

حمشي، محمد. (2017) النقاش الخامس في العلاقات الدولية: نحو إحقام نظرية التعقد داخل الحقل، أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجزائر، جامعة باتنة، كلية الحقوق والعلوم السياسية.

فرج، أنور محمد. (2007) النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، السليمانية، مركز كوردستان للدراسات الإستراتيجية.

كامبل، دايفد. (2016) مابعد البنيوية، في: تيم دان، وميليا كوركي، وستيف سميث (تحرير)، نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع، ترجمة: ديما الخضرا، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

كوركي، ميليا. (2016) العلاقات الدولية والعلوم الإجتماعية، في: تيم دان، وميليا كوركي، وستيف سميث (تحرير)، نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع، ترجمة: ديما الخضرا، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سميث، ستيف. (2016) التنوعية والتخصصية في نظريات العلاقات الدولية، في: تيم دان، وميليا كوركي، وستيف سميث (تحرير)، نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع، ترجمة: ديما الخضرا، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سميث، ستيف. (2004) مقاربات جديدة للنظرية الدولية، في: جون بيليس وستيف سميث، عولمة السياسة العالمية، دبي، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث.

المصري، خالد موسى. (2014) الوضعية ونقادها في العلاقات الدولية دراسة نقدية للوضعية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، دمشق، المجلد/ 30، العدد/ 1.

وايت، برايان. وليتل، ريتشارد. (2004) قضايا في السياسة العالمية، دبي، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث.

ثانياً: الإنجليزية:

Brown, C. (1994). 'Turtles All the Way Down': Anti-Foundationalism, Critical Theory and International Relations. Millennium, 23(2), 213-236.

Chernoff, F. (2007). Theory and Metatheory in International Relations: concepts and contending accounts. Springer.

Jackson, R., & Sorensen, G. (2016). Introduction to international relations: theories and approaches. Oxford university press.

Jarvis, D. S. (2002). Toward an Understanding of the Third Debate: international relations in the new millennium. International Relations and the" Third Debate", Greenwood Publishing Group, 1-13.

Kahler, M. (1998). Rationality in international relations. International Organization, 52(4), 919-941.

Kavalski, E. (2007). The fifth debate and the emergence of complex international relations theory: notes on the application of complexity theory to the study of international life. Cambridge Review of International Affairs, 20(3), 435-454.

Martin, H., and Smith, S. (1990). Explaining and understanding international relations. Clarendon Press.

Michael Banks, (2016) The Inter-paradigm Debate, in: Light, M., & Groom, A. J. R. (Eds.). International relations: A handbook of current theory. Bloomsbury Publishing.

Neufeld, M. A. (1995). The restructuring of international relations theory. Cambridge University Press.

Onuf, N., (2016) Five Generations of International Relations Theory, in: Booth, K., & Erskine, T. (Eds.). International relations theory today. John Wiley & Sons.

Patomäki, H., & Wight, C. (2000). After postpositivism? The promises of critical realism. International Studies Quarterly, 44(2), 213-237.

Rosenau, J. N. (1997). Many damn things simultaneously: Complexity theory and world affairs. Complexity, Global Politics, and National Security, National Defense University, 32-43.

Smith, S. (1996) positivism and beyond. In: Smith, S., Booth, K., & Zalewski, M. (Eds.). International theory: positivism and beyond. Cambridge University Press.

Smith, S. (2000). The discipline of international relations: still an American social science? The British Journal of Politics and International Relations, 2(3), 374-402.

Waever, O. (1996). The rise and fall of the inter-paradigm debate, in: Smith, S., Booth, K., & Zalewski, M. (Eds.). International theory: positivism and beyond. Cambridge University Press.

Wallerstein, I. (1996). Open the social sciences: Report of the Gulbenkian Commission on the restructuring of the social sciences. Stanford University Press.